النص بين اللسانيات و التفكيك

.

بن سخري زبير، أستاذ مساعد "أ"

قسم اللغة والأدب العربي/ المركز الجامعي- ميلة

الجزائر.

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2017/04/06	2020/08/09	2020/08/10

Abstract

Text linguistics has recently opened new horizons for sentence linguistics and this has positively impacted the literary studies as well as various fields such as translation, didactics, religious studies and superstitions. In this respect, it was confronted with the phenomenon of meaning. Afterwards, deconstruction emerged in the sixties and seventies of the twentieth century, and was congruent with the view of text as a unique constructional unit within all knowledge fields like philosophy, history, literature, religion and communication. Within this paradigm, deconstruction played a significant role for it has enriched semantic studies according to some cultural and philosophical procedures which are somewhat far from the outcomes of linguistics.

Key words: text, text linguistics, deconstruction, reference, Jacques Derrida.

الملخص

فتحت لسانيات النص آفاقا ظلت مسدودة عند لسانيات الجملة، وانعكس ذلك إيجابا على الدراسات الأدبية والعديد من الحقول المعرفية كالترجمة والتعليمية ودراسة الأديان والأساطير، واصدمت كغيرها بظاهرة المعنى، ثم ظهر التفكيك في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ووجد غايته في النص كوحدة بنائية متميزة في جميع الحقول المعرفية من الفلسفة والتاريخ والأدب والدين والإعلام، يتحرك بينها بفعالية حيث أثرى جانب الدراسات الدلالية وفق إجراءات فلسفية ثقافية بعيدة نوعا ما نتائج اللسانيات، لكنها لاتخلو من إثراء.

الكلمات المفتاحية: النص، لسانيات النص، التفكيك، المرجع، جاك دريدا.

مقدمة:

ظل النقد الأدبي قرونا من الزمن حبيس نظرية الجنس الأدبي غير قادر على تقسيم العمل الفني إلى وحدات شكلية أو موضوعية تسهل مهمته، حتى ظهرت اللسانيات وبدأت تسهل عمله بإضافة تصنيفات جديدة في شكل وحدات بناء توضح البنية الحقيقية للجنس الأدبي أكثر مما كانت عليه، فظهر مفهوم النص ومفهوم الخطاب والتقنيات اللغوية وأنماط النصوص، فاتضحت الرؤيا أكثر للنقد الأدبي فغدا تصنيفه اعتمادا على النص مثلا نقدا نصانيا وغير نصاني، كما ظهرت العديد من التقنيات الفنية التي تعتمد النص كشكل معياري لنقل الفكرة؛ فظهر التناص، والنصية وعلاقتها بالكتابة كأطر لتحديد انتماءها للجنس الأدبي، وأضحت الأدبية في مفهومها الحديثة مشروطة بعلاقات النص الشكلية من اتساق وانسجام، حتى غدا النص سمة لحضارتنا.

1.النص في مفهومه اللساني الحديث:

ظهر النص كمفهوم بنائي جديد في حقل اللسانيات التي انتهى تنظيرها الابستمولوجي عند الجملة؛ فاتحا آفاقا جديدة في ما يسمى بلسانيات النص والخطاب والتي كان أثرها ثوريا في حقل النقد الأدبي، ليعيد النظر في أسسه التي عمرت قرونا طويلة كنظرته لمفهوم الجنس الأدبي ومختلف التصنيفات التي كانت تعتمد على الجملة كوحدة بنائية – حيث لا تطرح إشكالات كثيرة في التصنيف لأن علاقاتها بين الكلمات– فالنص حسب تودوروف قد يطابق جملة واحدة أو كتابا برمته، وهو يمثل نظاما لا يماثل النظام اللغوي القائم على الجملة، وإنما يشابهه ويجاوره. وفي ضوء تلك المشابهة، اقترح التمييز بين ثلاثة مستويات:

المظهر اللفظي للنص A.verbal؛ و يضم كل مستويات الجملة إضافة للمظاهر الخاصة بالنص والتي لا تخرج عادة عن تصانيف مستويات الجملة إلا بعض الظواهر البنائية التي تمثل الجنس الأدبي في النص، المظهر التركيبي A.syntaxique؛ ويعنى بالعلاقات بين الوحدات النصية من جمل ومقاطع، المظهر الدلالي A.sémantique؛ وكل مظهر له إشكاليته الخاصة، ويؤسس لواحد من أكبر نماذج التحليل النصي: التحليل البلاغي والسردي والموضوعاتي، يضيف إن النص يقوم على أساس استقلاليته وانغلاقيته، وهما الخاصتان اللتان تميزانه، فهو يؤلف نظاماً خاصاً به، ثم يضيف"النص" نظامٌ جاف، أو تضميني، وذلك لأنه نظام ثان بالنسبة إلى نظام أساسي للدلالة، فنحن حين نحلل الجملة نميّز بين مقوّمات صوتية، وتركيبية، ودلالية، وكذلك في النص، دون أن تكون من نفس المستوى؛ كما يستعمل هيلمسليف مصطلح "نص" بمعنى واسع جداً، فيطلقه على أي ملفوظ ؛قديماً كان أو حديثاً، مكتوباً أو محكياً، طويلاً أو قصيرا [1]، ويتفق هذا الأخير في تعريفه مع مفهوم النص في قاموس الألسنية:" وهو المجموعة الواحدة من الملفوظات التي تخضع للتحليل...فالنص عينة من السلوك الألسني المكتوب أو المحكي"[2]؛ تلتقي التعريفات اللسانية في الكثير من المواضع وبالكاد تضيف مشروطية جديدة في النص؛ كونها تقبض بسهولة على الشكل وعلاقاته من خلال اللغة ويصعب ذلك في شكلنة المعنى من خلال اللغة، فاضطروا إلى خلق رموز تجريدية محاولين القبض على المعنى في وحدات أولية بنائية تشبه تلك التي توقفت عندها اللسانيات، وتعد أعمال غريماس السيميائية خير دليل على ذلك كما أشار تودوروف في موسوعته إلى الإشكالات الدلالية التي وقع فيها هاريس وتلامذته في التعامل مع النص تحت مسمى تحليل الخطاب.

فالمفهوم اللساني مركب بين الشكل والمعنى في صورة إجرائية مفهومية قد لا تتوافق وإجراءات بعض المناهج الفلسفية والأدبية لا من حيث العلاقة بين مدونة وإجراء ولكن من حيث المنطلقات الابستمولوجية، فالتفكيك مثلا لا يعترف بوجود الترجمة Intraductibilité ويعترف بوجود النقل من لغة إلى أخرى في صورة تقريبية لأنه يرفض في منطلقاته الجواهر والمعاني الأصلية والبدايات اليقينية والتفسير والمركز؛ كذلك في تعامله مع النص حيث لا يقدم تعريفا مناقضا أو ينفي الظاهرة، بل يحاول القبض على المفهوم في صورة أقرب إلى ابستمولوجيته كأن يتخلص من العلاقات الشكلية ويركز على المعنى كشكل متحرك؛ ليس بالضرورة أن يكون في علاقات لغوية (نص- جملة) مهما كانت اللغة، فالنصية (Textualité) أي ما يكون به الكلام نصا، ضوابط أخرى تتصل بكون النص في جوهره وحدة تواصلية[3]؛ فهذا المفهوم أقرب للسانيات منه لمناهج أخرى.

يقوم النص على التناظر المفاهيمي مع الجملة، فيما هذا المفهوم لا يشمل النص كظاهرة أدبية ونقدية من حيث النشأة والإبداع والتلقي؛ " ولقد أدى تنزيل النص في مقام إنتاجه، وبالتالي الوعي بكون النص خطابا متأثرا بوضعية الخطاب بمختلف عناصرها ومؤثرا فيها، إلى تنبيه الباحثين لكون النصية ليست وليدة النظام اللغوي وحده، وإنما هي مشروطة أيضا بمقاييس تتصل بالمخاطَب والمخاطب ووضعية التلفظ. ويتفاوت الباحثون في ترتيب هذه المقاييس من حيث القيمة: الاتساق، الانسجام، المقصدية،المقبولية، التناص، الإخبارية والمقامية"[4]، حيث يمكننا الفصل بين الشكل والمعنى كثنائية تصنيفية إلى عناصر منفصلة وتشكل مشروطية معرفية لمفهوم النص الذي ينطبق تماما على مفهوم النصية في هذا المستوى من التجريد، لأن النص كإبداع وليد بنية توليدية مجردة، من ثمة كان التنظير عملية عكسية تقتصي البحث في النشأة والبداية؛ فينطبق النص والنصية كمفهومين في مفهوم واحد. فبقدر ما تم ضبط النص كوحدة مجردة ومقابلة للجملة في علاقاته الشكلية بقدر ما اتسع في مفهومه حين اشترطت فيه الدلالة كجوهر أسبق من الشكل؛ فانفتح على كل الإشكاليات التي عرفتها الدلالة – المعنى- عبر التاريخ، ناهيك عن عتبتي الشفوي والكتابي والنص الظواهري والنص التكويني،" ... وهذا يكفي للإشارة بأن القيود التي تحكم بناء النصوص لا يمكن أن تختزل إلى القيود اللسانية التي تعمل على مستوى الجملة"[5].

سنستعين ببعض التعريفات الداعمة للمفهوم الأصل تتوزع تصنيفا بين الشكل والمعنى والتي تضمنت أن التجريد في الجملة سهل مقارنة بتجريد النص، ولعل تجارب الكثير من اللسانيين تثبت ذلك أمثال بيك وريد وهاريس، بيكير، كاتز وفودور... فالنص الجامع مثلا مفهوم اقترحه جيرار جينيت كحل لمعضلة الأدبية؛ كونها ليست النص مفردا، بل النص الجامع؛ و النص الجامع هو مجموع المقولات العامة أو المتعالية من قبيل أنمط الخطاب وصيغ التلفظ والأجناس الأدبية التي يصدر عنها كل نص مفرد، ثم سرعان ما تخلى عن اعتبار النص الجامع موضوعا للأدبية وحده، وجعل من التعالق النصي- التعالي النصي- موضوعا لها أيضا ؛تندرج فيها النصية الجامعة بوصفها نمطا من العلاقات العلنية أو الخفية التي تربط النص بغيره من النصوص. والتعالق النصي يشمل التناص والنصية الموازية والنصية الواصفة والنصية اللاحقة والنصية الجامعة التي يعتبرها خرساء؛ فغاية ما تضيفه إشارة نصية موازية تردف العنوان مفادها أن الأثر رواية أو شعر أو مجموعة أقصوصية ...إلخ[6]، ويعود العماء في الإشارة النصية الجامعة إلى تمنعها عن الانتماء إلى أي جنس أدبي

بعينه لأن فكرة التجنيس في جوهرها متحركة ولا تنتهي في حدود نقدية مضبوطة، كما أن سلطة القارئ التقديرية تتجاوز الأحكام الجاهزة مهما كانت أحقيتها بصاحب النص.

كما يورد جيرار جينيت مصطلح" النص الحاف" ويضم كل النصوص والخطابات السمعية والبصرية المتعلقة بالنص السردي دون أن تجاوره في مساحة الكتاب ولا تتشاكل معه في علاقات لغوية أو سياقية مباشرة، محايثة له زمانيا منذ تكوينه؛ ومن هذه النصوص أحاديث المؤلف الإعلامية ورسائله الشخصية وشهاداته الأدبية ومقالاته النقدية ومذكراته وسيرته الذاتية. وما كتب عنه في الإعلام والمقالات النقدية وشهادات الأدباء والأهل والأصدقاء"[7]، ألا يمكننا القول أن هذا نوع من التشظي والتبعثر في ضبط مفهوم النصية؟ وأن اللسانيين تجاوزوا التنظير للشكل إلى المعنى فتورطوا في ضبط المعنى في علاقات شكلية وأخرى سياقية حتى بات هذا الدرس ضربا من البحث عن المطلق والمثالية في استجلاء الظاهرة الدلالية في كل النصوص التي تعني والتي قد لا تعني؛ حتى أنه لنجد الكثير من التناقض في تصريحات الأدباء وكتاباتهم.

فكان من اللازم أن تظهر النظرية التداولية كعملية تصحيحية من داخل السانيات وتضبط هذا الانفلات الذي يخرج عن ابستمولوجيا اللسانيات وتقدم تعريفا مغايرا للظاهرة اللغوية في بعدها الأنطولوجي حيث جعلت النظرية التداولية اللغة ظاهرة متعددة الأبعاد من النفس واللاشعور إلى المجتمع والثقافة إلى الفيزياء والمادة إلى القصدية وأنظمة اللغة...ومن ثم يستحيل القبض عليها في هذا الكل منظورا إليها من زاوية منظورية –معرفية – واحدة ومحدودة؛ "فالمنظورية هي النمط الابستمولوجي (المعرفي) المهيمن على الحياة الفكرية المعاصرة. والمنظورية هي النظرة القائلة إن المعرفة بأسرها هي منظورية من حيث طبيعتها الجوهرية، أي أن الادعاءات المعرفية وتقديراتها تحدث دائما في داخل إطار يوفر المصادر المفهومية يوصف العالم من خلاله ويفسر. واستنادا إلى المنظورية ما من أحد يصور الواقع مباشرة كما هو في ذاته، بل هم يقاربونه من خلال ميولهم الشخصية بما فيها من افتراضات وتصورات مسبقة "[8]، فهذا هو القفص التنظيري الذي وقعت فيه اللسانيات، وعزلت الكلام كظاهرة دلالية رغم أنه أهم ظاهرة على الإطلاق في حياة الناس؛ ويمكنني الادعاء أنه أهم من اللغة في حد ذاتها رغم أنه أثر من آثارها ولكنها موضوع للمعرفة والكلام موضوع وجودنا.

من ثم نخلص إلى أن النص كجوهر تاريخي– ظهور المصطلح في القرن العشرين– يصعب القبض عليه في تمظهر أو شكل محدود وهذا الإشكال نابع في الأساس من فكرة تحليل الظاهرة الدلالية الأكبر من الجملة وخارج تصنيف الجنس؛ ففي المجال اللساني ينزع اللسانيون إلى التركيز على فهم النص بوصفه كلمات وجمل مستقلة سواء أكانت مكتوبة أم شفوية؛ وعليه فإن النص يصبح إنتاجا للخطاب كممارسة اجتماعية وكفعل مولد للملفوظات حيث الغرض من التحليل هو معرفة كيفية اشتغال نظام اللغة المجرد المتمظهر في الجملة أو النص ومحاولة ضبط آلية الاشتغال في قانون معياري مجرد مشكلن يسهل تطبيقه في العديد من المجالات كتعليمية اللغات والترجمة والبرمجة اللغوية...أماتحليل النص عند السياقيين فإنه مرحلة ثانية من التحليل باعتماد المعنى والدلالة في التحليل اللساني حيث يعتمد على الظواهر الخارجية وذاتية المبدع في حين أن تحليل النص ومعالجته عند أصحاب النقد الجديد والسيميائيين والتفكيكيين فيعتمد على مبدأ العودة إلى النص لدراسة مكوناته اللغوية وظواهر توليد اللغة للمعاني بعيدا عن المعطيات الخارجية والتاريخية[9] وذاتية المبدع مع إهمال شبه تام للقوانين اللسانية المعيارية المجردة المشكلنة لأن الغاية عندهم هو المعنى في حد ذاته.

2.النص والتفكيك:

ليس من الصدفة أن تعتمد النظرية البنيوية الأدبية النموذج البنيوي اللساني كنمط لهيكلة النصوص الأدبية ومختلف ظواهرها النصية وذلك لما اتصفت به البنيوية اللسانية من تجريد وشكلنة وعلمية، ولم تنحل هذه الرابطة بين النقد الأدبي واللسانيات إلى اليوم؛ مما يوسع في مفاهيم بعض الظواهر المشتركة بين الحقلين كالنص مثلا...حيث لايتفقان غالبا على حدها أو كينونتها لاختلافهما الابستمولوجي ولكن يمكننا القول أن هذا نوع من الإثراء المتبادل بين اللسانيات والنقد الأدبي، وكل منهما يحاول أن يكون حافزا أنطولوجيا للآخرفي تجاوز نظريته المعرفية.

مما جعل النقد الأدبي يرفض مفهوم النص اللساني ويقترح مفهوما آخر يستجيب لمعطياته وبنائه وإن اتفقا في المدونة الكتابية– في الغالب– كمنطلق تنظيري، فانفتح النص على الأيقونات السيميائية والثقافيةوالأنظمة الدلالية المختلفة، وهذا ما مهد له رولان بارت وجوليا كريستفيا وإمبرتو إيكو وجاك دريداوميشال فوكو...

يقول بارت أن النصّ مجرد نشاط، وإن المؤلف في تماس معه فقط؛ وهو لا يحيل إلى مبدأ بداية، أو نهاية، ولاانتماء له، يمارس النص التأجيل الدائم، واختلاف الدلالة؛ فهو مثل اللغة مبني؛ ولكنه ليس مغلقاً، ولا متمركزاً، بل هو لا نهائي، وهو لايبحث عن الحقيقة وربما ليست موضوعه.

إن النص مفتوح أبدا، وإن القارئ المتلقي ينتجه في عملية تشارك القراءة والتأليف في عملية دلالية واحدة، بحيث تكون ممارسة القراءة إسهاماً في التأليف، ناهيك بأن النص نوع من اللذة [10]، فهذا الكلام في مجمله يختلف ضمنيا عن موجة البنيوية وتنظيرها للنقد الأدبي؛ حيث كان لزاما وبالخصوص في فرنسا أن يظهر أمثال رولان بارت وجوليا كريستيفا كمرحلة انتقالية ما بين البنيوية والتفكيكية، هذه الأخيرة ممثلة في أعمال الفيلسوف جاك دريدا والتي يمكن اعتبارها قطيعة حقيقية مع النقد البنيوي .

حتى لا تتسم لغة المقالة بغرائبية لغة نقد النقد، لا بد أن يلتزم الباحث الضبط والمباشرة واستعمال المصطلح الدقيق وإلا ما توصلنا إلى ضبط مفهوم النص في موجة التفكيك خاصة مع دريدا لكثرة النصوص الحافة والجامعة على حد قول جيرار جينيت.

تعد الموسوعات النقدية على مر التاريخ إشارة نضج معرفية؛ كلما انتهينا من ضبط حقل معرفي في منهجه وإجراءاته ننزله الموسوعة ويصبح لا مختلفا فيه –ليس بالمطلق– حتى يسهل تداوله ويتم إنزاله لغير المتخصص في صورة منهجية وعلمية تتفق ولغته وأفكاره حيث تكون نصوص الموسوعات ذات نمط تفسيري، وأكثر الموسوعات دقة هي الموسوعات المتخصصة حيث توجه لفئة المختصين في حقل معرفي دون آخر وتتصف بالعملية والنفعية، ومن ثم ستكون انطلاقتنا من " قاموس دريدا" للأستاذ الأسترالي نيال لوسي حيث يورد مصطلح TEXT بعد تقصي مفهومه في أهم أعمال دريدا، التعريف يطول حتى ليستحيل اقتباسه كاملا وهذا طبيعي في موسوعة متخصصة لكن تظهر تاريخية تركيب المفهوم حيث لم يكن مفهوم النص محددا ومضبوطا منذ البداية عند دريدا، ولكنه تطور فـ" النص في أوسع معانيه هو شيء موجود أو تمّ بناؤه (رواية، فيلم، وثيقة قانونية، كتاب فلسفة، إلخ)، مما يعني أن هناك أشياء أخرى في العالم (ألا وهي العدالة والحقيقة وهلم جرا) ليست مجسدة ولكنها موجودة، ووفقا لهذه الرؤية القياسية (الميتافيزيقية)، يمكن أن نقول أن الكل يتمظهر إما في التمثيل (النص) أو الوجود الحقيقي "[11]، كثيرا ما اقترن النص بالكتابة ولكن مع موجة ما بعد الحداثة تطور ليشمل العلامة غير اللغوية؛ لأن النص أصبح أحد تمظهرات الخطاب الذي لا تفرق عنده العلامة اللغوية عن غير اللغوية

كون اللغة تجاوزت الأبعاد اللسانية وانفتحت مع الحقول المعرفية الأخرى كالفلسفة والأنثروبولوجيا والدراسات الثقافية وعلم الاجتماع والإشهار على أبعاد أخرى، ولكنه لا ينفي أهمية النص المكتوب الذي يعد ركيزة أساسية في التفكيك كونه أكثر الأشكال الخطابية تداولا واعتمادا في التأسيس الحضاري والمعرفي منذ انحناءة التاريخ من الشفوي نحو الكتابي.

ما يميز العلامة اللغوية عن غيرها وفق مفهوم النص الدريدي هو تاريخ العلامة المفتوح على الأرشيف وعلاقة العلامة بالمرجع؛ فالأيقونة في الفيلم مثلا تختصر البعد الزمني بين الدال والمدلول في صورة دون المرور بأرشيف استعمالات الكلمة مما يجعل المعنى تداوليا بصفة مجحفة في حق العلامة، فتضحي الخطابات غير اللغوية أقل انفتاحا على النصوص الأخرى وفعل التأويل؛ حتى ليعرف بول ريكور " أنّ النص هو خطاب مثبّت بالكتابة "[12] في عملية عكسية قلبت الخطاب تحت رحمة النص كونه يطوي المادي في المكتوب بقصدية المؤلّف، من ثمّ فالمكتوب هو القادر على طي أبعاد التاريخ وجعلها قابلة للاستعادة؛ فصورة وجه النبي محمد في المخيال الإسلامي ظلت ولازالت تحظى باهتمام قيمي كبير حتى استحال استحضارها في شكل حلم أو رؤيا نوعا من الكرامات، فهذا الاستحضار نوع من النصية، "عندما يتحدث دريدا عن النص يكون ذلك بالمعنى العادي(المعياري)، ولكن مع لي والتواء. فنص دريدا يحمل معنى شيئ حدث... بمعنى آخر أنه لايوجد "خارج النص"...وهذا ينتج عنه أمران اثنان: أولا؛ كل شيء هو نص ولا يوجد خارج النص،ثانيا؛ كون كل شيء نصا، ولايوجد شيئ أسبق من النصية، من ثم لا يوجد ما يضاهي التمثيل "[13]، فالمقصود بالعادي هو الشكل المتعارف عليه للنص حيث يهمله دريدا كجوهر في التعريف ولكن الالتواء واللي يكمن في أبعاد النصية، فالنص وحده مكمن التاريخ والماضي؛ هو عالم ساكن متحرك، تنتفي الأشياء خارجه، والانتفاء ليس العدم بل العلاقات التي تموضع الأشياء في مكانها الصحيح، ولدينا من الشواهد على هذا في القراءات الدينية ما يثبت جدوى هذا النموذج من العلاقات؛ فتجربة الإسرائيلي في النص القرآني تختلف كلية عن تجربة بقية الأقوام حيث تحكمهم علاقة غيبية بالإله لا تفهم إلا في ظل العلاقات النصية الداخلية للنص القرآني [14]، خارج القرآن أي النصوص التاريخانية لا يمكن أن تميز علاقة الإسرائيلي بالإله إلا في إطار أسطوري إحيائي تتشابه وتتقاطع فيه كل الأمم، لكن دريدا عكس الباحث السوداني حاج حمد في قراءته للنصوص القرآنية لاينفي تلك الخاصية عن كل نص؛ وإنما العجز يكمن في فعل القراءة لا في مدى ثراء عوالم النص المخفية .

اشتهرت عن دريدا كثيرا عبارة " لا وجود لخارج النص "، فاستحال كل شيء نصا لا يحمل المعنى في ذاته وإنما هو تمثيل؛ وهذا راجع لنفي وهدم فكرة المركز والحضور، فالزهرة التي تنبت في برية ما الآن لا وجود لها في ذاتها وإنما هي تمثيل استوجبته النصية أي لا غاية للأشياء في ذاتها وإنما غايتها مسبقة في نسيج النصية؛ فلونها الأحمر يستحضر أسبقية العين التي ترى الأشياء، والعين تستحضر الضوء وهكذا...هو استحضار ومشروطية الأشياء للكُنه في حد ذاته، فلا وجود للأشياء إلا تمثيلا في نسيج النصية المسبق، فبقدر ما سعى التفكيك لعزل البنيوية إذ به يصطدم بها في مستوى المسلمات والبدايات والمنطلقات ولو في صورة أولية بسيطة، لا بد أن ننطلق من جاهز ومحدث.

أ.البنى المادية والنص:

ساهم الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو في تغيير نظرتنا لنظرية المعرفة وكيفية إنتاجها، فالمناهج الأدبية السياقية كانت تشرك السياق الخرجي في قراءة النص؛ لكنها تؤخذه في إطار تفاعلي حيث الذات هي مركز عملية الإبداع ويوفر لها المحيط الخارجي المادة للتفاعل، فيما تحولت الذات إلى معبر وأشرك القارئ في عملية الإبداع ناهيك عن المفهوم المؤسساتي للنظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وأثرها السلطوي، الكل تفاعل لإنتاج النص في جدلية مادية تحت سلطة اللغة، ليستمر اشتغالها والنص مقيد بالكتابة في شكله اللانهائي.

فـ"النص عند دريدا لا يعني تقييد الحضور، فالحضور أثر للنصية وهذا لا يستدعي أن التفكيك يفهم الحتميات الاقتصادية والسياسية والتاريخية كنوع من الخيال، أو يكون اشتغالها في نفس مستوى الإجراءات البلاغية. وهذا لا يعني أن

التفكيك حال دون الإشارة إلى القصدية "[15]؛ لا تغيب عن وعي دريدا جدلية المادة ولو استحضارها كفعل في التاريخ، فالخيال يحكمه القانون حتى النصوص الأسطورية لا تتجاوز الحتميات وإنما مرهون فهمها بنظام استخدام اللغة أولا ورؤية للوجود ثانيا– ضرورة التاريخانية–، أما الحتميات المادية فاشتغالها في عوالم النصوص ليس من قبيل المجاز، فالنص يحجب عن أول متصفح له، منذ النظرة الأولى قانون تأليفه وقواعد تلاعبه. ويستعصي على الإدراك بالعقل حتى يستحق الاتصاف بالنصية. فقانونه وقواعده ليست غيبية. ولكن ببساطة يتعذر اقترانها بتاتا [16]، فالقصدية في النص عند دريدا لها من القوة والحضور والأسبقية في نسيج النص أكثر من الحتميات المادية التي لا يمكن تجاهلها في منطق القصدية واختيار الكلمات وبناء النص، مثلما تتراكب الحتميات وتصنع التاريخ في مقابل ذلك تنسج القصدية النص متضمنة المدرك وغير المدرك حتى يمكن للحدث في ماضيه أن ينفتح على المستقبل كجزء منه،" متى قلنا "نصا"، فعند دريدا يعني كل البنى الواقعية والاقتصادية والتاريخية ،والمؤسسات الاجتماعية، باختصار كل المراجع الممكنة. متى كان لهذه المراجع تفردها...لكن ليست هي نفسها"خارج النص"...مرة أخرى ما يمكن أن نطلق عليه المرجع اللانهائي (اللامحدد) للنص الدريدي ينبغي أن لا نخلطه مع شكل من أشكال التمثيل"[17]، فالنص عند دريدا مجموعة بنى ممكنة متشابكة؛ ليست هي تلك الموجودة خارج النص، وهذا يطرح سؤال إمكانية استقرار البنى في الزمن ومن ثم يصعب القبض عليها مرة أخرى، وفكرة المراجع الممكنة لا يمكن فهمها بمعزل عن فكرة الكتابة و القراءة عند دريدا، فالمرجع عند دريدا تحكمه حركة الإرجاء اللانهائية حيث يستحيل تمظهر المرجع اللانهائي في شكل محدد؛ لأن الأشكال واهية أمامه ولا تقدر على استيعابه، يرفض دريدا التأسيس على الميتافيزيقا وإلا كانت الفكرة ميتافيزيقية بتميز ؛ لا يريد لها أن تغادر حقل المعنى واللغة .

يسلّم دريدا بنوع من الازدواجية النصيّة، أي حضورنصيّن في النص ذاته، نص ميتافيزيقي وظاهر مكتوب تحت حتمية التاريخ وكل تجليات الجدلية المادية، وكل الأنظمة المعرفية السلطوية التي غايتها اليقين والحقيقة وحجبهما؛ ونص موازي ومضاهي، شبيه بالشبح المرآوي، لأنّه ليس شيئاً آخر سوى هذا النص الميتافيزيقي في اختلافاته وفجواته، في تناصه وتناقضه. فالنص يهدم ويفكك ذاته بذاته من جراء الترقيع التأويلي والغمس التداولي والغطس داخل السياقات المتعددة بتعدد القراء[18]، بقدر ما ينفتح نص دريدا على حرية ظاهرة تكاد تختلط بفوضى القراءة أو كما يسميها هو إساءة قراءة إلا أن كوامن النص تنتظم نسبيا في التاريخ عبر مؤسسات المعرفة وعبر الإدراك الذاتي، فلازلنا إلى اليوم نجد فرقا صارخا بين قراءاتنا للتراث وقراءة الاستشراق رغم أن النصوص واحدة والبنى المنتظمة خلف النصوص نراها نسبيا واحدة.

ب.المرجع والنص :

يستبعد دريدا في استراتيجية تفكيكه للنصوص من أن يكون «هناك نص متجانس Homogène إذ أن هناك في كل نص حتى في النصوص الميتافيزيقية الأكثر تقليدية، قوى عمل هي في الوقت نفسه قوى عمل تفكيك للنص»[19]، منذ جينالوجيا نيشته والتي نضجت مع أعمال فوكو، انضاف للنص عمق أركيولوجي كان يفتقده في نصوص النقد الأدبي، حيث لم يعد موجودا عندا دريدا مركزا– السائد Le dominant– لتنتظم حوله معاني النص، كل النصوص هجينة؛ مشكلة من طبقات تتجاوز اللغات والأجناس والمعاجم، لاتحضر بذاتها وإنما تترك أثرا trace، يوحي بحضور ما في زمن ما يصعب القبض عليه ولكنه حاضر في غيابه من خلال روح المرجع، " ما تسميه السيميولوجيا مرجعا، بالنسبة للتفكيك هو نص آخر، " وهذا لايعني " يقول دريدا" أن كل المراجع ملغاة أو مرفوضة ، أو مغلقة داخل كتاب ... " [20]، يطرح

دريدا مفهوم المرجع السيميولوجي الذي هو تأسيس دلالي ثقافي حيث يتطابق عنده ومفهوم النص؛ فالمراجع في السيميولوجيا هي ثوابت نسبية يمكن الاعتماد عليها لضبط الدلالة حيث نعتبر المعاجم هي مجموع المراجع في شكلها الخام، كلّ علاقة بالواقع تتوسّطها شبكة من الكتابات، أي حبائك من النصوص نحن مقيّدون داخلها، لكن دريدا يوسع مفهوم المرجع إلى النص، فالمرجع يعتمد بدوره على علامات أخرى؛ أي أن علاقتنا بالمرجع تكون عبر نسيج اللغة من ثم يستخدم دريدا مفهوم التناص للتعبير عن تركيبية المراجع مهما كانت،" إن حجب النسيج يمكنه أن يستغرق قروناً عديدة في حلّه .ينطوي النسيج على نسيج آخر ويستغرق حلّه قروناً عديدة بإعادة تشكيله كجسم حيّ "[21]، فتتحول المراجع إلى نصوص مركبة تتداخل في علاقات محايثة خارج حتى ثنائية التاريخي والآني ومفتوحة على الذات البشرية بتميز.

إن مفتاح سر النص عند دريدا هو المرجع المتحرك بين الحقيقة والمجاز بين الظهور والخفاء، بين الحضور والغياب، بين القصد والعماء، هذه الشقوق المعنوية هي التي تمكننا من تلمس تركيب محكم في شكل طبقي تاريخي يبدو لنا في شكل لساني بسيط يتسم بالانسجام والتوافق في كل علاقاته الشكلية والدلالية، وهذه هي روح النص؛"...هي تلك النقطة التي تتحرك باتجاهها نصية النص إبان تفجر الإخصاب الناجم عن النشاط الفوضوي للنص؛ وما هذه النقاط إلا تلك الكلمات التي تقف على طرفي نقيض مع المفاهيم، ألا وهي تلك النتف من النص التي يعتقد دريدا بأنها مكمن نصية النص المناعة على التقليص... وهكذا فإن ما يشير إليه دريدا هو مشهد كتابة في صميم مشهد كتابة وهكذا دواليك إلى اللا نهاية من خلال ضرورة بنيوية واضحة المعالم في النص "[22]، ربما يكون مفهوم النص السابقHypotext حسب جيرار جينيت أحسن توصيف شكلي لتولد النصوص من بعضها البعض حيث كل نص يولد منه نص جديد لاحق وهكذا، فيدخل النصان في علاقة نصية لاحقة يخضع فيها النص المصدر لعملية تحويل مباشرة أو غير مباشرة، فتعاد كتابة النص كتابة جديدة [23]، لاتختلف آلية التناص عند دريدا المولدة للنصوص عنها عند جيرار جينيت لكن الأولى تتجاوز الشكل إلى المعنى والثانية الشكل أسبق من المعنى.

شرط النصية عند دريدا هو الانفتاح اللانهائي على المرجع المطلق، توفير حظ للمهمش والمسكوت عنه علنا، المرجع المشروط بطبيعة الذات التي تعيش الأحداث وقد لا تدركها ولكنها تحمل آثارها في مستوى من المستويات، تجاوز وكسر لعلاقة الصوت بالمعنى ولتركيب الأصوات التي تدعي الإشارة إلى عوالم خارجية؛ بابل الصوت والمعنى.

خلاصة:

لم نتلمس في مقالتنا هذه فرقا يذكر من حيث التوصيف الشكلي وعلاقاته بين جاك دريدا واللسانيين، حتى لنعثر على توافق ضمني من دريدا على مفاهيم النص الجامع، النص الحاف، النص اللاحق، التعالق النصي لأنها علاقات شكلية تقارب المنطق الوصفي الذي ترتهن نتائجه عادة للمدونات وليس للمنهج، حتى نقد دريدا للسانيات كان يخص المعنى، فيما نجد اللسانيين يتوقفون عند الشكل.

يغرق دريدا في التنظير لظاهرة المعنى ويحاول القبض على شروط إنتاجه وشروط قراءته، يمكننا اعتبار النص في مفهومه الدريدي هو تتمة لما أرادت أن تصححه التداولية في لسانيات الجملة ولسانيات النص في تحليل الظاهرة الدلالية عدا أن التفكيك يقر بأهمية النص المادي المكتوب كشكل تواصلي حضاري لم تعد المشافهة فيه تمثل مركزا لأنها تقتل المعنى في قصدية الشعور، مثلما قوض التفكيك الحضور والمراكز والإثنيات وأرجأ المعنى، جعل النص في مفهومه امتدادا لروحه ومنهجه؛ فكان بناؤه على الثقافة وتعدد الأصوات والمتغير والعابر بين العدم والمطلق كحدين ونهايتين داخل النص.

الهوامش:

[1]– Oswald Ducrot, Tzvetan Todorov : Dictionnaire encyclopédique des Sciences du langage, éditions du Seuil, p 376-375 .

[2] – Jean Dubois , Mathée Giacomo et autres :Dictionnaire de Linguistiques, édition Larousse, Paris- France, 1972, p 486.

[3]– محمد القاضي وآخرون : معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى 2010، ص 453.

[4]– مرجع نفسه، ص ن.

[5]– أوزوالد ديكرو، جون ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، ص 534.

[6]– انظر: محمد القاضي وآخرون: مرجع سابق، ص 455.

[7]– المرجع نفسه ، ص 456.

[8]– جون سيرل:العقل واللغة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى2006، ص 40.

[9]– Boussaha Hassen et autres: Dictionnaire Terminologique Bilingue ,Français- Arabe, Domaine Littéraire et Linguistique, Laboratoire Langue et Traduction Université Mentouri Constantine,2014.p 352– 353.

[10]–انظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص229.

[11]– Niall Lucy: A Derrida Dictionary, Blackwell Publishing, the United Kingdom, 2004,p 142.

[12] –Paul Ricoeur, Du texte à l'action. Essai d'herméneutique II, Paris, Seuil, 1998,p 154.

[13] – Niall Lucy :opcit, p 143.

[14]– انظر:محمد أبو القاسم حاج جمد: العالمية الاسلامية الثانية، الطبعة الثالثة ، دار الساقي، بيروت، 2012، ص ص 273-296.

[15] – Niall Lucy :opcit, p 143.

[16]– انظر:أحمد عبد الحليم عطية:جاك دريدا والتفكيك . دار الفارابي. الطبعة الأولى2010.ص 141.

[17] – Niall Lucy :opcit, p 143.

[18]–انظر: محمد شوقي الزين: نسيج النص : علامات في التفكيك،(*An International Journal*) Semat ، مجلد 1، العدد 2، سبتمبر 2013 ، ص 198.

[19]–جاك دريدا، الكتابة والاختلاف ،ترجمة كاظم جهاد،دار توبقال للنشر،ط2، الدار البيضاء،2000، ، ص 49.

[20] –Niall Lucy :opcit, p 144.

[21]– جاك دريدا: صيدلية أفلاطون ، ترجمة كاظم جهاد ، دار الجنوب للنشر، تونس، 1998 ، ص 21 .

[22]– أحمد عبد الحليم عطية: مرجع سابق، ص ص143– 144.

[23]– محمد القاضي وآخرون : مرجع سابق ، ص 456.